



هناك لحظة تحول يجد الداعية أو المفكر أو الموجه أنه مدعو إلى اعتبارها في طريقه مع الناس إلى الله، تلك لحظة لا ينبغي لها أن تتقدم أو تتأخر عن توقيتها الصحيح، حيث يؤدي التأخر عنها أو تقديمها لعواقب وخيمة.. لحظة يتوقف فيها المجادل عن الجدل..

أو لحظة يتحول عندها الداعية إلى الجهر بها..

أو لحظة يرى فيها الموجه أن سلوكه هذا الطريق لنهايته سيودي بمن يوجههم..

عندما يتوقف صاحب العقل والحكمة عن الاستمرار، ولو كان طريقه الذي سلكه منذ البداية صحيحاً، لكنه ليس صحيحاً في امتداده؛ إذ لكل طريق بداية ونهاية؛ فلا يعني صواب البداية أن استمرارها على الدوام دون انعطاف يصيّب الحق. الانعطاف عن الفعل الريّب ضرورة في كثير من الأحيان، وذلك حينما لا يكون المناخ مهيئاً للاستمرار على وثيرة واحدة..

دعونا نتأمل هذا التحول من المراقبة إلى ميدان آخر من التحدي أمام الناس، برع نبي الله موسى - عليه السلام - في اتخاذه في لحظة رأى عندها أن الاسترسال في المراقبة أمام ملأ فرعون، وفي ظل ارتفاع منسوب الغيظ لدى فرعون حدا به إلى البدء في استخدام لغة السباب ثم ارتفاع إلى التهديد بالسجن، في صورة باللغة الدلالة على ما تقدم في مستهل سورة الشعرا، لا يسعنا إلا نقلها كاملة لتأمل هذا التدرج ثم التحول الحواري من موسى عليه السلام إلى طور آخر من وسائل تبيان الحق،

يقول عز وجل: ﴿قَالَ كَلَّا فَأَذْهَبَا بِأَيَّاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِمُونَ﴾ (١٥) ﴿فَأُتْيَاهُ فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) أَنْ أَرْسِلُ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴿قَالَ أَلَمْ نُرِكَ فِينَا وَلِيَدَا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩) ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٠) ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا حِفْنَتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١) ﴿وَتَلَكَ بِعْمَةَ تَمْنُهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٢) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْنِتِينَ﴾ (٢٤) ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِمُونَ﴾ (٢٥) ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ أَبَائِكُمُ الْأُولَئِينَ﴾ (٢٦) ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) ﴿قَالَ لِيْلَنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩) ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْنُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠) ﴿قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٣٢) ﴿وَنَزَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٣٣) ﴿قَالَ لِلْمَلِأِ حَوْلَهُ إِنَّهَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤)

كان النقاش متدرجاً، ولم ينزو فيه الكليم عليه السلام في نقاشه مع فرعون، بل خاطبه بكل قوة جهراً بالرسالة، واستنقاذاً لبني إسرائيل، وإنما لفرعون الحجة بشأن العبودية التي فرضها على بني إسرائيل ثم منته بهذه العبودية عليه وعليهم! عبواً بالتعريف بالخالق عز وجل، وبعض آثار قدرته سبحانه ، مكانا (السماءات والأرض)، (المشرق والمغرب)، وزمانا (آبائكم الأولين) ..

ثم أتت اللحظة الفاصلة..

تلك التي لابد أن يدركها وينتبه لها كل داعٍ، ومفكٍّ، وصانع رأي، فالاستمرار على نحو واحد وإن كان محموداً في بدايته، فالتأخر عن التحول عنه قد يجر إلى مصيبة.. فماذا لو تأخر موسى عليه السلام؟ أكان يمكن للباطل أن ينكشف في يوم الزينة؟ أكان لفرعون أن ينكسر، ويبداً عده العكسي سريعاً لمغادرة التاريخ؟

إن الصمود حتى انزهاق النفس أو السجن ليس دوماً بطولة، بل قد يكون رعونة إذا ما واتت العالم أو الداعية أو الموجه وسائل أخرى لإظهار الحق دون هذا الثمن، أو به، لكن بانتشار أكبر وظهور أعلى.. وليس بطولة إذا كان بالإمكان التمهل ريثما تناح فرصة أخرى بالتراجع لخطوة وبالصبر لتجنب الأشد خسارة وللحفاظ على ما استقر من مكتسبات لا ينبغي أن يُفُرط فيها.

لقد ظل انعدام هذه الرؤية لدى كثيرين مدعاة لدفع أثمان باهظة فيما لا طائل حقيقاً وراءه، عدا ربما تحقيق بعض المكتسبات الظرفية أو الذاتية التي يمكن أن تكتب لأصحابها في أخراها أو دنياها من دون أن ينعكس ذلك أثراً بالغاً في مسيرة المؤمنين. حصل كثيرون على ألقاب "شهداء" بين الأنام، لكن مصطلح "الانتصار" ذاته ربما غاب وسط تقديرات طائفة غفت عن لحظات مصرية، وتحولات استحقاقية، نفذ وقتها.. إذ إن البعض تأسره من معاني الانتصار تلك التي يتحقق فيها الجانب المعنوي وحده على النحو الذي تحقق لأهل الأخذود، ظاناً أن ذلك كافٍ في كل حال، ولو تيسر ما هوأشمل.

لا، إن التقدير الشامل، واختبار الأرض التي يقف عليها الدعاة أمر ضروري لا فكاك عنه لم أراد أن يستلهم خط الكليم موسى عليه السلام، أما دونه، فضرب من ضروب العشوائية والرعونة المذمومة.

